بين حافظ وإمام العبد

للاستاذ خليل الخورى

كان المغفور له حافظ بك إبراهيم شاعرا عظيما وأحد الثلاثة الذين رفعوا اسم الشعر عاليا فى الجيل الماضى. ومن يجهل أولئك الأدباء الذين لن يمحو كرور الأيام ولا مرور الأحقاب ذكراهم الخالدة — بل من لا يعرف شوقى وحافظا والمطران أولئك الأبطال الثلاثة الذين قد يكونون ولدوا فى سنة واحدة فهم من فلتات الزمان. وقد تمر الأحيال بل القرون ولا تلد النساء أمثال هؤلاء العباقرة

وإنى أذكر أن فى مقهى «سبلندد بار» (مقهى السبت فاير اليوم) المجاور لنزل شبرد المشهور والمقابل لحديقة الأزبكية فى القاهرة كان يجلس أدباء الجيل الماضى فى خلال الحرب العظمى الأولى وقبلها، ومن أولئك الأدباء — الشعراء الثلاثة الذين خفقت أعلامهم فى الأقطار والشيخ طاهر الجزائرى والشيخ رشيد رضا والشيخ عبد الحميد الزهراوى ومحمد إمام العبد الشاعر الأسود ورفيق بك المعظم وداود بك بركات والشيخ عبد القادر المغربى ومحمد كرد على — والعالم الدكتور شبلى الشميل الذى كان أعلم رجال زمانه فى العلوم الطبيعية وأنطون الجميل بك؛ وكان ينتاب ذلك المجلس النينة بعد الفينة سليمان البستانى والدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر باشا

ذلك كان مقهى العلماء والأدباء يجالسون فيه طوال الساعات يتجاذبون فيه طرف الأحاديث من قديم ومن حديث فكان بمثابة سوق عكاظ، والذى تتاح له مجالسة أولئك الأبطال كان يتعلم منهم الجم مما جهل فقد كانوا معلمين طوراً وتارة متعلمين

ولم يبق من الأحياء ممن ذكرت سوى الدكتور فارس نمر والشيخ عبد القادر المغربى ومحمد بك كرد على الذين مازالوا يعملون فى العلم والأدب والصحافة واللغة أطال الله أعمارهم وصان صحتهم ورحم الله أولئك الأبطال الخالدين

ووقع مرة أن حافظا كان فى المقهى ومعه بعض صحبه فأقبل عليهم محمد إمام العبد والكآبة تملو محيـــا الأسود فبزيده حلوكا؛ وبعد أن سلم على الإخوان الفطاريف جلس إلى جانب حافظ فذعر حافظ من ذلك المنظر وكربه أن يرى إمام العبد يعانى ذلك الغم — وقال له ويحك أقـــل ما أصابك. هل ماتت زوجتك أم مات ابنك وأنت لا زوجة لك ولا ابن ولن يكون لك لا ذلك ولا هـذا — ويحك ألا تضحك قليلا بل ألا تبتسم حتى يبدو اليسير الجميل من الدميم الكثير منك — فتظهر أسنانك البيضاء الناصعة فتشفع ولو قليلا لسواد وجهك الحالك؟ فانهمرت العبرات من مآقى الشاعر البائس وقال لحافظ كيف أضحك وقد بت ليلة أمس كلهـــا أعانى الكرى من وطأة الطوى — أعطنى اليسير مما رزقك الله — فبكى حافظ — واستبكى سائر الجلساء وكانوا كلهم أولى المترية والإملاق وجيوبهم من النضار بل من اللجين أفرغ من البيداء من الماء — وقد كان حافظ أقلهم شقاء وبؤسا على رغم شهرته فى الشقاء والبؤس

بكى حافظ على إمام العبـد وعلى نفسه وعلى سائر أصحابه ومد يده إلى أحد جيوبه وأخرج قطعتين من النقد قطعة من الذهب وقطعة من الفضة — أما قطعة الذهب فكانت جنيها إنكليزيا، وقطعة الذهب قرشا صاغا مصريا؛ وألقى القطعتين على المائدة التى كانت بين الجلساء وقال لإمام العبـد خذ القطعة التى تشاء من هاتين القطعتين. فتنـــاول الإمام القرش وترك الجنيه التألق على وولى وهو يبكى؛ فلحق به حافظ واستحلفه أن يأخذ الجنيه وشدد عليه فى ذلك وهـو يأبى وكان بين المحسن والمستجدى البائس صراع عنيف؛ هذا يرفض الاستئثار بالجنيه ويكتفى بالقرش، وذاك يصر على إعطائه الذهب واستبقاء الفضة حتى تغلب بعد طول الصراع حافظ على الإمام ومضى هذا بالجنيه وترك القرش لحافظ

طرابلس الغرب — خليل الخورى